الدرس الخامس

كلمتان وشجرتان

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٧) .

ضربُ الأمثال في القرآن :

جَرَتْ سُنَّة القرآن بضرب الأمثال ؛ لما فيها من بيان وإيضاح يجعل المعقول في صورة المحسوس ، والغائب في صورة المُشاهَد ، يقرِّب المعاني ، فإن كان يتحدَّث عن أمور عقليَّة أو معنويَّة فإنه يجسِّدها حتى تصبح كأنها مرئية للعيان ، ولذلك جرى في القرآن ضرب الأمثال كثيرًا : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ (البقرة: ٢٦١)، ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ (البقرة: ٢٦٥) ، إلى غير ذلك من الآيات ، والأحاديث النبوية فيها الكثير والكثير من ضَرْب الأمثال .

OBEIKAN.COM

فالله تعالى يضرب لنا الأمثال ، كما قال في سورة العنكبوت : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٣) ، أصحاب العلم والفكر هم الذين يعقلون المرادَ من هذه الأمثال ، ويفهمون منها لماذا ضُربت ، وما المقصود منها ؟

وبعض الناس لا يفهمون منها شيئًا ، حتى إنَّ المشركين حينما وجدوا القرآن يضرب الأمثال أحيانًا بالنمل ، بالعنكبوت وبهذه الكائنات ، ويقول : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

(العنكبوت:٤١) .

كلُّ ما حصل في أذهان هؤلاء الكفار والمشركين : أنَّ محمدًا يريد أن يضرب لنا الأمثال ، بالنملة والنحلة والبعوضة وبالعنكبوت وبهذه المخلوقات ، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٦) .

اللهُ يضربُ الأمثال للناس ، كما قال في نهاية هذه الآية : ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، رجاء أن يُعمِلوا فكرهم ، أما العقول البليدة فهي التي لا تفكِّر ، وهذه هي مشكلة البشريَّة : أنَّ الله أعطى الناس عقولاً ، فبعضهم استخدم هذه العقول فعرَف نفسه ، وعرَف ربَّه وعرَف الكون من حوله ، وبعض الناس عطَّلوا هذه العقول ، فلم يعودوا يتفكرون : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر:٢١) .

OBEIKAN.COM

الكلمة الطيبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾

هنا ضَرَب الله المثل بالكلمة الطيِّبة ، فما هي الكلمة الطيِّبة أولاً ؟!

الطيِّب أحيانًا يُراد به الطيب في الطعم ، تقول : هذا طعام طيِّب ـ يعني مشتهًى أو لذيذ .

والطِّيب في الرائحة ، تقول : ريح طيِّبة .

والطِّيب في النتيجة ، والثمرة ، تقول : هذا أمر نتيجته طيبة ، يعني يُؤْتي ثمارًا كريمة . . . إلخ .

فالكلمة الطيِّبة هنا : الكلمة التي لها آثار طيِّبة ، هي في نفسها طيّبة ، وآثارُها طيّبة أيضًا .

الكلمة الطيبة : لا إله إلا الله :

ما هي هذه الكلمة؟ بعض المفسِّرين قالوا : الكلمة هي كلمة الإسلام ، كلمة التوحيد ، كلمة الإخلاص ، كلمة التقوى ، كلمة الشهادة ، كلمة : (لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله) .

البعض قال : هذه هي الكلمة ؛ لأنها مفتاح الإسلام ، ومَدْخَل الإسلام .

بماذا تدخل الإسلام؟ أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله . وهي التي قال فيها الله تعالى : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٦) .

OBEIKAN.COM

الكلمة الطيِّبة : القرآن الكريم :

وبعضهم قال : الكلمة الطيِّبة المقصود منها : القرآن ؛ لأنه يحتوي الكلام الطيب والقول الطيب الذي يهدي إلى الله ، ويهدي إلى صراطه المستقيم ، ويهدي للتي هي أقوم ، ويدلُّ الإنسان على الحقوق والواجبات ، ويُرشدهم إلى الآخرة ، وكيف يَتَجنَّبون ما يُسْخِطُ الله ، ويحصلون على ما يُرضي الله عزَّ وجل .

القرآن هو الذي يشمل هذا كلَّه ، وكلام الله أو كلمة الله . كما يقول ابن مالك : (وكلمة بها كلام قد يؤم)[1] . تقول كلمة ، وليس المقصود كلمة : مبتدأ وخبر ، أو فعل وفاعل . لا ، الكلمة قد تكون موضوعًا ، فتقول : فلان له كلمة في هذا المؤتمر ، وقد يتكلم ساعة ، فالكلمة قد يُقْصَد بها الكلام .

ولكن يقال : إنَّ الكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، أو الشهادة ، أو القرآن الكريم باعتباره كلام الله : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود:١) ، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:٤٢) .

الكلمة الطيبة : دعوة الإسلام :

وبعضهم قال : المراد بالكلمة الطيبة هنا : دعوة الإسلام ، الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ وأرسله الله ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ (التوبة:٣٣) ، دعوة الإسلام التي ختم الله بها الدعوات والرسالات ، وجاءت بالشريعة الكاملة والخالدة ، شريعة الإسلام الصَّالحة والمصلحة لكلِّ زمان ومكان .

---

(١) أي : يقصد . وهذا عَجُز البيت الثاني من ألفية ابن مالك .

OBEIKAN.COM

ونقول : لا مانع أبدًا أن تشمل هذه الكلمة كلَّ هذه المعاني ، فالكلمة الطيِّبة تتَّسع لهذا كلِّه ، تشمل كلمة التوحيد (الشهادتين) ، وتشمل القرآن الكريم وما يدعو إليه وما يهدي إليه ، وتشمل دعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ .

الشجرة الطيِّبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ : مثَّل الله الكلمة الطيِّبة ؛ بالشجرة الطيِّبة ، فما هي هذه الشجرة؟

بعضهم قال : إنها النَّخلة . النخلة شجرة طيِّبة ، وجاء ذلك في بعض الأحاديث ، **وهي التي شبَّه بها النبي** ﷺ المؤمن ، أو شبَّه المؤمن بها ، كما في حديث ابن عمر أنَّ النبيَ ﷺ قال : « إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها ـ صيفًا ولا شتاء ـ وإنها مثل المسلم ، فحدِّثوني ما هي؟» . فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت . ثم قالوا : حدثنا ما هي ، يا رسول الله ؟ قال : « هي النخلة»[1].

كان يمتحنُ الصحابة : مَنْ يعرف هذه الشجرة ؟ فَقَعد الناس يأتون بشجر البوادي ، وقال ابن عمر : خطر في بالي أنها النخلة ، ولكن وجدتُ في القوم أبا بكر وعمر وكبار الصحابة ، فاسْتَحْيَيت . وهو صغير ، فقال له عمر : لو قلتَها لكان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا . فقال النبيُّ ﷺ بعد أن ضربوا يمينًا وشمالاً ولم يهتدوا إليها . قال : « هي النخلة» .

بعض المفسِّرين قال : المراد بالشجرة الطيبة : النخلة ؛ لأن النخلة شجرة ينتفع فيها من كلِّ شيء ، ينتفع بالثمرة ، ينتفع بها بُسْرًا ، وينتفع بها رطبًا ، وينتفع بها تمرًا ، حتى النواة يمكن أن ينتفع بها ، تأكلها الحيوانات ، وأيضًا جريد النخل

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في العلم (٦١) ، ومسلم في صفة القيامة(٢٨١١) ، كما رواه أحمد (٥٢٧٤) ، الترمذي في (٢٨٦٧) ، عن عبد الله بن عمر .

OBEIKAN.COM

ينتفع به ، وورق النخل والخوص يصنع به أشياء كثيرة ، وكذلك سعف النخل ، وليف النخل ، وزيت النخيل ، وحتى جذع النخل . . . كلُّ شيء في النخلة يُنتَفع به ، ولذلك لا عجب أن يُضرب بها المثل ، «وإنها مثل المسلم» .

فهي شجرة طيِّبة ؛ طيبة في شكلها ، طيِّبة في رائحتها ، طِّيبة في طعمها ، طيِّبة في منافعها ، شجرة طيِّبة .

ووصفُ الطيب وصفُ محمود في الأشياء ، تقول : هذا طيب وهذا خبيث ، وفي الكلام : كلام طيِّب وكلام خبيث ، وفي الناس : إنسان طيِّب وإنسان خبيث ، والله تعالى يقول : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:١٠٠) ، فتقسيم الأشياء ، والبشر ، والنبات إلى خبيث وطيب تقسيم معروف .

أوصاف الشجرة الطيبة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

هذه الشجرة الطيِّبة من أوصافها :

الصفة الأولى : رسوخ الأصل :

رسوخ أصلها ، فهي شجرة ثابتة ليست متزعزعة رخوة ، عائمة على وجه الأرض ، لو هبَّت ريح تقتلعها ، لا . . . هذه شجرةٌ لها رسوخ ، وفعلاً النخلة من الأشجار التي لها رسوخ ، ففي العواصف حين تشتدُّ تقتلع كثيرًا من الأشجار ، إنما النخلة صعب أن تقتلعها إلا على سبيل النُّدرة ، فهي ثابتةٌ ، أصلها ثابتٌ ضاربةٌ بعروقها في الأرض لا تُؤثِّر فيها الرياح[1].

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : أصلها ثابت : قول لا إله إلا الله في قلب المؤمن ، وفرعها في السماء ، يُرفع بها عمل المؤمن إلى السماء . رواه ابن جرير (٢٠٦٥٨) .

OBEIKAN.COM

الصفة الثانية : علو الفروع :

أنها عالية الفروع، فرعها في السماء، فهي ثابتة الجذور عالية الغصون والفروع، فروعها عالية .

السماء : تطلق على كلِّ ما علاك ، حتى السقف يمكن أن يُطلق عليه سماء : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الحج:١٥) ، أي حبل إلى السقف .

أو يقال : ﴿ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي في جهة السماء ، المراد بفرعها : فرعٌ عالٍ ، فهي عالية الفروع ثابتة الجذور .

الصفة الثالثة : تؤتي أكلها كل حين :

﴿ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ الأُكل : ما يُؤْكَلُ منها من ثمرات . أي : من شدَّة نموِّها ، تُعطي ثمرتها في كلِّ حينٍ ، في كلِّ وقت عيَّنه الله لإثمارها بإرادة خالقها وتسخيره . بعض الشجر يعطي في الصيف ، وبعض الشجر يعطي أُكُله في الشتاء ، وبعضه في الربيع ، وبعضه في الخريف ، وبعضه يعطي في السنة مرَّة ، وبعضه أكثر من مرَّتين ، وبعضه كلَّ سنتين ، إنما المهم أنَّ هذه الشجرة تُؤْتي أُكلَها كلَّ حينٍ ، في الحين المؤقَّت لها .

دلالة كلمة : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ :

وكلمة : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ، أي : بتيسيره وبمباركته وبتوفيقه وبتفهيمه ؛ لأنَّ كلَّ ما يجري في الكون هو بإذن الله عزَّ وجلَّ .

نُموُّ الشجرة وارتفاعها وإيتاؤها أُكلها كلُّ ذلك بإذن الله ، لو لم يأذن الله للشجرة أن تنمو ما نمت ، لو لم يأذن أن تُؤْتي أُكلها ما آتت .

OBEIKAN.COM

مَن الذي يعطي الشجرة غذاءها ؟ تمتصُّ غذاءَها من الأرض ، من الأملاح والمعادن بقدر معلوم : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ (الرعد:٤) ، لا يمكن أن تمتصَّ شجرة الليمون ما تمتصُّه شجرة التفاح ، لا .

هذه شجرة حمضية ، وهذه شجرة حلوة ، فهذه تأخذ من الأملاح ما لا تأخذه غيرها .

من الذي علَّم الشجرة هذا ؟ الله هو الذي أَذِنَ لها ، بإذن ربِّها ، فالنباتات تختلف : ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر:١٩) .

العلماء الآن ـ علماء الجيولوجيا والنباتات والأحياء ـ يقولون : فعلاً كلُّ شيء موزون .

تعرف أنَّ هذا النبات يأخذ كم مليجرام من الأملاح ، ومليجرام من الماء وكذا ، كلُّ شيء موزون ، وكلُّ شيء بقدر : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ ، ولذلك يقول : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ ، إنها ليست سائبة ، إنها مُيَسَّرة بقدر الله عزَّ وجلَّ ، تجري بقدر ، وتمضي بقدر ، وتأخذ ما تأخذ من الأرض ، ومن الشمس ، ومن الهواء بقدر ، من الذي علَّم النباتات أن تستنشق ثاني أكسيد الكربون ، نحن نستنشق الأكسجين ، لولا الأكسجين نهلك ، والنباتات تتنفس ثاني أكسيد الكربون الذي نخرجه ، النبات يمتصُّه ويستنشقه ، نحن نستغني عن هذا والنبات يحتاجه ، والنبات يتنفسه .

الأكسجين نحتاجه نحن ، مَن الذي صنع هذا التَّبادل بين المملكة الحيوانيَّة والمملكة النباتيَّة؟! نحن ـ ونحن أصحاب العقول ـ لم نُركِّب هذا ، وطبعًا الحيوانات والنباتات لم تركب هذا ، من الذي ركَّب هذا كلَّه وقدَّره فأحسن التقدير ،

OBEIKAN.COM

وأحسَنَ كلَّ شيء خلقه؟ ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٨٨)، إنه الله ، ولذلك قال : ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ .

هذه أوصاف هذه الشجرة : أنها شجرة طيِّبة ، وأنَّ أصلها ثابت ، وأنَّ فرعها في السماء ، وأنها ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ . وهذا هو الذي ينبغي أن تكون عليه الكلمة الطيبة ، تكون كهذه الشجرة الطيِّبة ، تكون ثابتة ، غير مزعزعة ، غير متشكِّكة .

بين كلمة الباطل وكلمة الحق :

دائمًا أهل الريب ، أهل الكفر ، أهل الجحود هؤلاء دائمًا شاكُّون مشكِّكون لا يثبتون على شيء ، يتشكَّك في كلِّ شيء ، هذه ليست من أوصاف الكلمة الطيِّبة ، فشك المرتاب ليست هي الكلمة الطيبة ، لأنها ليست ثابتة الأصل ، كلمة مزعزعة لأدنى شيء تنهار ؛ لأنَّ الباطل لا أساس له ، ولذلك الباطل خفيف الوزن وقليل الثبات ، لا يثبت أمام الحقِّ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:١٨).

القرآن يقول : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾، الزَّبَد : الرغاوي المنتفخة التي تَطْفو على سطح الماء ، أو الأشياء والغثاء التي يحملها السيل ، أوراق القش والحطب وأمثال هذه الأشياء ، هذا هو الزَّبد الذي يذهب جُفَاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

وهكذا الكلمة الطيِّبة ثابتةٌ وفرعها في السماء ، عالية المقدار واضحة لا تتخفَّى ، إنها تنبِئ بنفسها ، تُعبِّر عن نفسها ، الباطل دائمًا يحبُّ أن يتخفَّى ، إنما الحقُّ يريد الظهور ، فالحقُّ ثابت ؛ وهذا معنى كلمة حقٍّ .

حَقَّ يحقُّ أي : ثَبَت يَثْبُت ، فالحقُّ من شأنه الثبات ، وأول مَن أطلق عليه كلمة الحقِّ هو الله تبارك وتعالى ؛ لأنه هو الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يزول ولا يحُول :

OBEIKAN.COM

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس:٣٢) ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ (الحج:٦٢) .

الحقُّ من شأنه الثبات ، ومن شأنه العُلو والظهور ، والحقُّ أيضًا الكلمة الطيِّبة ـ كلمة الحقِّ ـ من شأنها أن تُعطيَ ثمارها وفوائدَها للناس في كلِّ حين ، الحقُّ هو حقٌّ في ذاته ، ولكن مع هذا ينفع الناس : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد:١٧) .

ليس هناك أنفع للناس من الحقِّ ، وليس هناك أضرُّ على الناس من الباطل ، الحقُّ هو الذي ينفع الناس في الدنيا ، وينفعهم في الآخرة ، ينفع الناس أفرادًا وينفعهم جماعات ، ينفعهم ماديًّا وينفعهم روحيًّا .

بين النفع الماديِّ والنفع المعنويِّ :

الناس أحيانًا تبحث عن النفع المادي فقط ، وتنسى النفع الروحي المعنوي ، الحقُّ يعطيك الحلاوة كما سمَّاها النبي ﷺ في بعض الأحاديث حلاوة الإيمان : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يُحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار »[1].

مَن كانت فيه هذه الخصال الثلاث وجد حلاوة الإيمان ، هذه الحلاوة لا يحسُّها إلا مَن كانت عنده هذه الحاسة المعنويَّة التي تتذوَّق الأشياء ، لم تفقد هذه الحاسة بالكفر ولا بالشكِّ ولا بالريب .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) كلاهما في الإيمان ، كما رواه أحمد (١٢٠٠٢) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤) ، والنسائي في الإيمان (٤٩٨٧) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣) ، عن أنس .

OBEIKAN.COM

فالكلمةُ الطيِّبةُ ثابتةٌ في أصولها ، عاليةٌ ظاهرةٌ في فروعها : ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

المقابلة في القرآن الكريم :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

كما ضرب الله لنا مثل الكلمة في هذه الآية الكريمة ، ثم على طريقة القرآن دائمًا يقرن الأشياء بأضدادها ، كما قال الشاعر :

ضدان لما استجمعا حسنا ... والضدُّ يظهر حسنَه الضدُّ[1]

وقيل : وبضدها تتميز الأشياء .

فلكي يُعرِّفنا الحقَّ تمامًا يذكر الباطل ، يذكر الشيء وما يقابله ، يذكر الوعد والوعيد ، يذكر الترغيب والترهيب ، يذكر الجنَّة والنار ، يذكر الطيب والخبيث .

وبعد أن ذكر لنا وضرب لنا المثل بالكلمة الطيِّبة ، ضرب لنا المثل في المقابل بالكلمة الخبيثة ، لنتمسَّك بالكلمة الطيِّبة ونتجنَّب الكلمة الخبيثة .

ولماذا يضرب لنا الأمثال؟ لنستفيد منها ، لننتفع بها ، لنهتدي بهداها ؛ لا لمجرَّد أن نتعلَّم فقط ، التعلُّم مهم ، ولكن المهم بعد العلم : العمل . فعلمٌ بلا عمل كشجر بلا ثمر .

ولذلك ضرب لنا المثل بالكلمة الطيِّبة ؛ لنبحث عنها ، ونستمسك بِعُراها ، وضرب لنا المثل بالكلمة الخبيثة ؛ لنبتعد عنها ، فقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ .

---

(١) من ديوان علي بن جبلة .

OBEIKAN.COM

لم يُفصِّل الله في الكلمة الخبيثة ، وفي وصفها ، كما فصَّل في الكلمة الطيِّبة ؛ لأنها هي المقصود ، فالمقصود من ذكر الكلمة الخبيثة التَّحذير منها ، أما المقصود بذكر الكلمة الطيبة فهو التمسُّك بها .

الكلمةُ الخبيثة والشجرةُ الخبيثة :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ، يرى كثير من المفسِّرين : إنها شجرة الحنظل ؛ لأنها شجرةٌ كثيرة الشوك ، شوكها يُؤْذي ، وليس لها رائحة طيِّبة ، ولا ثَمَر لها ، لا تستفيد من ثمرها ، ولا تستفيد برائحتها ، وأيضًا تؤذيك بشوكها ، فهي مثل السوء في الأشجار .

وصف الشجرة الخبيثة :

والبعض قالوا : ليس المهم أن نُحدِّد الشجرة ، المهم أن نُحدِّد أوصافها ؛ فهي شجرة ليس من ورائها ثمرة ، شجرةٌ عائمة على وَجْه الأرض ، ليس لها ثبات ، ولا رسوخ ، الشجرة الطيِّبة أصلها ثابت ، وهذه ليس لها أصل ، قليلة الأصل ، ليس لها أصل بالمرَّة ، لذلك قال : ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ .

اجْتُثت : أي اقْتُلعت . الاجتثاث : قطع الشيء من أصله ، اقتطعت ، أي اقتلعت فلم يبقَ لها من باقية في الأرض : ﴿ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ، كما أنها أيضًا ليس لها جذورٌ ثابتة ، فهي لا تُتعب الذي يريد أن يَجْتَثَّها ؛ لأنها من فوق الأرض : ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ .

من شأن الباطل الزهوق والزوال :

هكذا شأن الباطل ، فإذا كانت هذه الشجرة تُمثِّل تعاليم الشِّرك في مقابل تعاليم القرآن ، والدعوة إلى الشرك في مقابل الدعوة إلى الإسلام ، وتمثل كلمة الشرك

OBEIKAN.COM

والوثنية في مقابل كلمة التوحيد ، فهذه ليس لها أي قرار ، ﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ ، ما لها من ثبات . وهكذا شأن الباطل ، الباطل سريع الزوال . فدولة الباطل ساعة ، ودولة الحقِّ إلى قيام الساعة .

من شأن الحق الثبات :

الحقُّ من شأنه الثبات إلى أن تقوم القيامة ، والباطل شأنه الزوال ، حتى وإن ظهر في بعض الأحيان لا يدوم : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٨١) .

المسلمون ظلُّوا يقاومون الباطل ، والشِّرك ، والوثنيَّة ، وعبادة الأوثان والأحجار ، ظلُّوا يقاومونها ثلاثة عشر عامًا في مكة ، وثمانية أعوام في المدينة ، يقاتلون المشركين والوثنيين ، حتى إنَّ الوثنيين هؤلاء غزوا المسلمين ـ غزوا الرسول وأصحابه ـ في عُقْر دارهم بالمدينة ، في غزوة أحد ، وغزوة الأحزاب ، كانوا يريدون استئصال شأفتهم واقتلاع جذورهم ، ولكن سرعان ما ظهر الحقُّ ، وانكشف الباطل في السنة الثامنة من الهجرة ، حين دخل النبيُّ ﷺ مكة فاتحًا .

مكة التي خرج منها مطاردًا دخلها فاتحًا ، خرج منها ليلاً ودخلها نهارًا ، خرج منها سرًّا ودخلها جهارًا ، وأصبح هو الحاكم في أهلها ، جمعهم في المسجد ، وقال لهم : « ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم؟ » . هؤلاء الجبابرة الذين ـ طالما طَغَوْا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ، طالما عذَّبوا المؤمنين وأذاقوهم ما أذاقوهم من ألوان الأذى ، ماذا قالوا حينما قال لهم : « ما تظنُّون أني فاعل بكم؟ » . قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . فعفا عنهم ، وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1].

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى كتاب السير (١١٨/٩) عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM

المهم أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه عندما دخلوا مكة ، ودخلوا الكعبة البيت الحرام ، وكان فيها وحَوْلها ثلاثمائة وستون صنمًا ، ظلَّت هذه السنين كلها ، هذه الأصنام منذ زمن موجودة حول الكعبة ، حتى إنَّ المسلمين حينما اعتمروا (عمرة القضاء) طافوا بالكعبة ، وهذه الأصنام حولها ، لم يستطيعوا أن يفعلوا معها شيئًا ، ولكن يوم الفتح كانوا يطعنون هذه الأصنام برماحهم ، ويضربونها بسيوفهم ، فتسقط خارَّة على وجهها ، والنبيُّ ﷺ يقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء:٨١) ، من شأن الحقِّ أن يحقَّ ويثبت ، وشأن الباطل الزهوق والزوال .

تثبيتُ المؤمنين بالقول الثابت :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

هذه سُنَّة من سُنن الله في الأرض ، فبعد أن ضَرَبَ لنا هذين المَثَلَين ، بيَّن لنا هذه السُّنة ، أنَّ من شأن الله تبارك وتعالى أن يُثبِّت الذين آمنوا بالقول الثابت ، لا يتزحزحون عن حقِّهم أبدًا ، لا يرتابون في أنهم على الحقِّ ؛ لأنهم مؤمنون ، وأنَّ ما معهم إنما هو الحقُّ المبين ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٩) .

وكما أُمر الرسول بهذا، المسلمون أيضا مأمورون به: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

(الزخرف:٤٣، ٤٤).

وهكذا يشعر المؤمنون أنهم على صراطٍ مستقيم ، وأنهم على الحقِّ المبين ، وأنَّ معهم الحقيقة التي جاء بها النبيُّ محمدٌ ﷺ من عند ربِّه صافيةً واضحةً ليس فيها غموض ، وليس فيها إشكال ولا إلغاز .

OBEIKAN.COM

من أوصافها : أنها بيِّنة ، الرسول جاء بالبيِّنة : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد:٢٥) .

القرآن نزل بالبيِّنات : ﴿ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥) ، ولذلك يُسمَّى القرآن : الهدى والهداية : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢) ، ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨٥) .

ومن أجل هذا يُثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، مهما نالهم من الأذى ، ومهما نزلت بهم من الشدائد ، ومهما أصابهم من المحن وإيذاء الكفار ، يُثبِّتهم الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا ، وهذا تثبيتٌ من الله عزَّ وجلَّ ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٧٤،٧٥) .

إيتاء الحُجَّة للمؤمنين على أعدائهم :

المُثبِّت هو الله ، لذلك قال : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ ، يُعطيهم الحُجَّة على أعدائهم ، فتجد أهل الإيمان أقوى حُجَّة ، وأقوى تعبيرًا عن حقِّهم ، وعلى بيان باطل خصومهم ، كما آتى الله إبراهيم الحُجَّة : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ (الأنعام:٨٣).

أُوتي الحُجَّة ، كما ذكر القرآن : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٨) ، هذا الذي يقال عنه النمرود الذي يجادل إبراهيم في ربِّه قال : كما أنَّ إلهك يُحيي ويميت أنا أُحيي وأُميت . وبعد ذلك قال : ائتوني باثنين من عُرض الطريق . فجاءوا باثنين ، وحكم عليهما بالإعدام ، وقال للسيَّاف : اضرب هذا بالسيف . فأعدمه ، وادَّعى الإماتة له ، والإحياء لصاحبه ، وقال : أنا أعدمتُ هذا ، وعفوتُ عن هذا ، أحييت هذا .

OBEIKAN.COM

هكذا جادل إبراهيم ، فلم يُرِدْ إبراهيم عليه السلام أن يَدْخُل معه في معنى الإحياء ، ومعنى الإماتة ، والمراد بالإحياء والمراد بالإماتة ، ولكن انتقل من دليل إلى آخر ، قال : طالما أنت قادر على كلِّ شيء ، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ ، إذا كنتَ أنت إله وقادر على كلِّ شيء ، افعل هذا العمل ، تطلع الشمس بأمر ربِّنا من هذه الناحية ، أطلعها أنت من هذه الناحية . ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ .

وهكذا ، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، طول حياتهم ، يُثبِّتهم الله عزَّ وجلَّ بالقول المؤيد بالحجة ، فلا يتزحزحون عن دينهم ، مهما اشتدت عليهم المحن والفتن والتعذيب ، يُعطيهم الحُجَّة ، يُقوِّيهم على أعدائهم لأنَّ معهم الحقَّ ، ومن كان معه الحقُّ كان الله معه ، ومَن كان الله معه فلن يُخْذَل ، ولن يُغْلب ، ولن يضيع أبدًا .

تثبيت المؤمنين بالقول الثابت في الآخرة :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ ، أي : في القبر ، والقبرُ أول منازل الآخرة ، يُثبِّتهم الله في القبر ، إذا سألهم الملَكان عن ربِّهم ونبيِّهم والكتاب المنزَّل عليه من ربِّه ـ كما جاء في الأحاديث[1] ـ يثبِّتهم

---

(١) من ذلك : ما رواه البخاري في التفسير (٤٦٩٩) ، ومسلم في الجنة (٢٨٧١) ، عن البراء ابن عازب مرفوعًا : « المسلم إذا سئل في القبر : يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » ، فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ (إبراهيم:٢٧) » . وروى البخاري في الجمعة (١٣٣٨) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضع العبد في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا خيرًا منه ، قال رسول الله ﷺ : « فيراهما جميعًا ، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول كما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » .

الله ، أما الكفار والمنافقون لا يثبتون عندما يُسألون عن محمد ، يقولون : لا ندري سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلتُ مثلهم .

أما المؤمن فهو يعرف مَن هو ربُّه ، وما دينه ، ومَن رسوله ، وما كتابه . يثبِّته ويُنطقه بالحقِّ في هذا الموقف ، ولذلك جاء في الأحاديث : أنَّ المراد بالقول الثابت هنا ، القول الثابت في القبر . ولكنَّ الآية تشمل أيضًا ، القول الثابت في الآخرة ، حينما يُسأل الناس يوم القيامة : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر:٩٢،٩٣) .

هناك تزلُّ الأقدام ، وتضلُّ الأفهام ، وتطيشُ العقول ، يوم تنشر الدواوين ، وتُنصب الموازين : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، حين يُسألون يُجيبون ، تثبيتٌ من الله ، ثبَّتهم في الدنيا ، ويثبِّتهم في الآخرة .

إضلال الظالمين :

﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١)

وإذا كان هذا هو شأنُ الله تبارك وتعالى مع المؤمنين ، يثبِّت المؤمنين ، فشأنه مع الظالمين أن يضلَّهم ، يُضلُّهم فلا يهتدون إلى حقٍّ ، ولا يهتدون إلى كلمة يقولونها ، لأنهم لا يعرفون الحقَّ ، ظلموا أنفسهم ؛ ظلموا الربوبية فلم يعرفوا حقَّها ، وأشركوا بالله ما لم يُنزِّل به سلطانًا ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) .

وربَّما ظلموا المؤمنين وآذوَهم ، وهؤلاء الظالمون المحاربون للحق لا يستحقُّون أن يهديهم الله عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين ، إنَّما يهدي

---

(١) أي : ويحكم الله على الظالمين من دَرَكة الكفر بالضلال ، ويكون مصيرهم إلى جهنم ، بعد إصدار الحكم عليهم في محكمة العدل الربانية يوم الدين .

OBEIKAN.COM

الله مَن كان عنده استعداد للهُدى ، أما مَن ليس عنده استعداد للهدى فلا يستحقُّ هداية الله ، ولذلك قال : ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) ؛ لأنَّ القوم الظالمين يرفضون الهداية ، ويأبَونها .

الهداية تأتي عندهم وهم يرفضونها ، فهم لا يستحقُّونها ، ولذلك يقول تبارك وتعالى عن المؤمنين : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ (الفتح:٢٦) ، كانوا أهلاً لها ، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأنعام:٥٣)، الذين عندهم استعداد للشكر ، فأهل الشكر يستحقُّون الهداية من الله ، وأما الظالمون الذين ظلموا أنفسهم ، وظلموا غيرهم ، فهؤلاء يُضِلُّهم الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٦).

مشيئتُه سبحانه المطلقة لا تنفصل عن حكمته :

﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

هو صاحبُ الملك يتصرَّف فيه كيف يشاء ، يهدي ويُضلُّ ، ويُعزُّ ويُذلُّ ، ويُفقر ويُغْني ، ويُضحك ويُبكي ، ويُحيي ويُميت ، يفعلُ ما يشاء .

هل يلامُ صاحب الملك أن يتصرَّف في ملكه؟ هو يفعل ما يشاء ، ولكن مشيئته سبحانه لا تنفصل عن حكمته ، كلُّ ما يشاؤه عزَّ وجلَّ لا يخرج عن الحكمة ؛ لأنه حكيم ، ومن أسمائه الحسنى : الحكيم . فهو حكيمٌ في أقواله ، حكيمٌ في أفعاله ، حكيمٌ فيما شرع وأمر ، وحكيمٌ فيما خلق وقدَّر ، فلا يخلق شيئًا باطلاً ، ولا يشرع شيئًا عبثًا ، يفعل الله ما يشاء ، لكن هل من الممكن أن يظلم؟!

لا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩).

أيمكن أن يفعل الأشياء عبثًا ؟

لا . ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٥)؟!

وكما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (إبراهيم:١٩) ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الدخان:٣٨،٣٩) ، فكلمة : ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (إبراهيم:٢٧) ، مقيَّدة بالحكمة ـ بحكمة الله عزَّ وجلَّ ـ مشيئته مقيَّدة بالحكمة ، ولهذا قال أُولو الألباب : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ (آل عمران:١٩١) ، لم يَخلق الله السماوات والأرض ، وما بينهما ، ولا شيئًا فيهما باطلاً أبدًا ، كلُّ ما خلقه بالحقِّ وبالحكمة اللائقة به ، وبكماله عزَّ وجلَّ .

* * *

OBEIKAN.COM